التاسع من نيسان ٢٠٠٣ وثنائية الامس والغد

اعداد / المدى الثقافي

ان ما حصل من تغيير في التاسع من نيسان عام الفين وثلاثة ، مهما تباينت الآراء حوله ، لم يكن تغييراً عادياً ، او حدثاً عابراً ينسى بمجرد مرور ايام او سنوات عليه ، وانما هو ذاكرة متنقلة معنا ، تفرض تفاصيلها علينا الخوض فيها ، والنظر الى الوراء والامام معاً. ضمن هذه الثنائية التي نكون عليها في النظر الى هذا التغيير ونقصد ثنائية الامس والغدً ، تمر علينا الذكرى الخامسة ، وانطلاقاً من اهمية الرأي في كيفية النظر الى هذا التغيير ، قمنا بتوجيه هذا السؤال الى عدد من المثقفين العراقيين العاملين في حقول المعرفة والابداع ، وكانت هذه اجوبتهم.

نقطة تحول اساسية في تاريخ العراق

اول المتحدثين كان الشاعر الفريد سمعان امين عام اتحاد الادباء، الذي عد هذا التغيير نقطة تحول اساسية في تاريخ العراق اذ قال:
ان ما جرى في ٢٠٠٣/٤/٩ رغم ما قيل وما يقال من ادعاءات، واشادة، والانتقاص من قيمته، وكل ما دار بصدد الموضوع يعتبر بنظري نقطة تحول اساسية في تاريخ العراق، ولعلها تشكل امتداداً لما كان متوقعاً بعد انتصار ثورة ١٤ تموز/ ١٩٥٨ المجيدة.
الا ان من المؤسف، والمؤسف جداً، ان القيادات السياسية، وبدقة اكثر بعض القيادات السياسية، لم تعرف ولا تعرف حتى اللحظة، كيف تتعامل مع هذا الحدث الكبير، ولا اريد الاسترسال بما كان عليه الوضع قبل ٤/٩ فكل عراقي مكتو منه، بشكل أو بآخر، فمن لم يخضع لأوامر البعث في محلته خضع له في دائرته، ومن لم يقاس من المستوى المتردي من الحياة قاسى من اشياء كثيرة كالجيش الشعبي والانتهاك وملء الاستمارات التاريخية التي تميز بها ذلك العهد دون غيره من العهود، ومن السخرية كانت تسمى استمارات السكن. ولم يتوقف الامر عند بوابة معينة، لقد نال من الموظف والعامل والعالم والانسان البسيط والمثقف بشكل خاص لأن كلماته لها صدى في المجتمع عندما تنشر في أي مطبوع بأي شكل اعلامي كان وقد استعملت مختلف الاساليب لاغراء المثقفين بالاغراء تارة وبالتهديد تارة اخرى ولا افهم يصدر أي نظام اوامر للاشادة بشخص معين حتى في النازية، واصبح الترويج للقائد البطل مسألة ضمن الواجبات التي يجب ان يتحدث الانسان عنها وبها، لقد حاصروا الثقافة واساءوا اليها وحولوا مسارها من ثقافة متعددة الجوانب والاتجاهات والانطلاقات الى ثقافة مختنقة وضعوها في سجن كبير وجندوا لها كل السياط والمخالب والوسائل التعذيبية الاخرى لوأدها والاجهاز عليها. اني بهذه المناسبة ادعو كل الفئات السياسية على شتى افكارها واتجاهاتها ان يحافظوا على هذا النصر الكبير وان لا يسيئوا الى المثل والقيم التي كانوا ينادون بها وهم في المنافي او السجون، وانا اقول لهم، لم يستطع العراق ان يخرج من ازمته ويحقق للشعب العراقي انتصارات علمية واجتماعية وصناعية وثقافية الا في اطار الوحدة الوطنية واذا ما استمرت كل فئة او جهة على الاعتصام بما تدعيه ويهمها دون النظر الى مصالح الاخرين فسوف يتحطم كل شيء ويعود العراق الى مكان لا يفرح به الا الاعداء وان المكاسب الشخصية التي يبحث عنها البعض بحرارة ويحاول ان يحصل عليها بكل الوسائل غير اللائقة، يحكم عليه التاريخ والمجتمع والثقافة وابناء الشعب الذين قاسوا وما زالوا ولابد من الاهتمام بمطاليبهم بكل ما يسئ اليهم وسمعتهم وعليهم ان يهتموا بالانسان البسيط الذي يبحث طوال هذه السنوات العجاف عن عيش آمن ورغيد، وهو بحاجة ماسة الى العمل والخبز والكرامة والصحة في بلد يغص بالنفط وعلى من يحب وطنه ان يكون انسانياً ووطنياً وصادقاً.

٩ نيسان فضاء الحرية الجديد

اما القاص والباحث ناجح المعموري، فاعتبر هذا اليوم، فضاء جديداً للحرية وزمناً لتعدد الاصوات فقال: كان يوم ٩ نيسان ٢٠٠٣ لحظة تاريخية حاسمة في تاريخ العراق الجديد وليس مرحلة ثقافية جديدة، لأن الثقافة جزء من شبكات التغيير الذي حصل، وهي في تفاصيل ظاهرة كانت- الثقافة-بؤرة لوضوح الحرية وفضاء التغيير، لأن الدكتاتورية انهارت وهي تومئ لمثيلاتها بالانتباه والفطنة، وانهارت معها الواحدية للأبد. كنا في زمن النظام الدكتاتوري نستمع لصوت واحد في المكان والزمان، إنه صوت السلطة وممثلها، أو أصوات عديدة لا تملك صوتاً وإنما تتحدث بلسان السلطة، لذا كان كل شيء في حياتنا مصاغاً على وفق لسان القائد الضرورة.. أما الآن فالاختلاف كبير، الأصوات متعددة وإن كانت متنافرة لأنها في طور المران واختبار قدراتها على تبادل الثقافة والسياسة، وإن رافق ذلك عنف في مجال الثقافة والعلاقات المجتمعية ونحن ننظر لكثير من الظواهر السلبية الطافية على السطح بوصفها نتائج لثقافة دكتاتورية وخطاب قمعي، وهي في حدودها المعروفة لنا لا تعدو أن تكون غير استعادة -عبر الأفعال- لخطاب المؤسسة السياسية/ والعسكرية/ والثقافية/ لأن تنوعات الثقافة الدكتاتورية ما زالت قائمة ومتعرشة في أركان المؤسسات الجديدة، لأنها تعلمت واكتسبت ملامحها في مؤسسات الدكتاتور.
٢٠٠٣/٤/٩ لحظة جديدة بالمفهوم الفوكوي أنها أشرت الانقطاع السياسي الواحدي وبرزت تعدديات صوتية وثقافية عبر الفضائيات الكثيرة جداً ومئات الصحف والمجلات، وعشرات الإذاعات المحلية، كلها وفرت فرصة واسعة للمواطن للحصول على الحقيقة، ولم يبق شيء مستور.
شهدت حياتنا الجديدة ثقافة سياسية أكدت على التداول السلمي للسلطة وهذا وحده مؤشر ثقافي مهم وبليغ وسط جغرافية تحولت السلطة فيها إلى أرث عشائري وقبلي. الثقافة الجديدة أن تقول كل ما تريد قوله. ومن الظواهر الثقافية الجديدة ضمور الرقابة العائق الخطير أمام التحديث والبرامج التنويرية التي تعمل عليها منظمات المجتمع المدني. وباختصار شديد حاز كل فرد على صوته الخاص وغادر تماماً صوت الواحد القادر على كل شيء، وهذا حتماً سيفضي إلى المجاورة مع البعض والتحاور معه، وهذا أبرز ما أنتجته اللحظة التاريخية الجديدة التي وفرت فضاء لارتفاع الأصوات ولم يكن صعباً على الفرد أن يستمع لها ويحدد خياره على وفق قناعاته الفكرية.
أما الكتابة في زمن الاحتلال فإنها معطى لفضاء الحرية المقيد بقرار من مجلس الأمن، لكنها وحتى الآن لم تكشف عن حالة واحدة في الوسط الثقافي والفني عن وجود ردود أفعال سلبية مباشرة من قبل قوات الاحتلال ولكن المربك الوحيد هو الجماعات/ المليشيات المسلحة الخاصة بالحركات الدينية التي تعمل على إعاقة تنوعات الفعل الإنساني ولن يستمر هذا طويلاً، لأنه محكوم بالعملية السياسية وتطوراتها. وعلى الحركة الثقافية/ والمعرفية تعميق دور المواطنة وصناعة ثقافة وطنية ذات ملامح هوياتية متعددة، لأن الثقافة تعددية وتنوعية كما قال إدوارد سعيد، وهذا يفضي إلى معطيات الانجذابات الكثيرة وربما العميقة. هذا كله تعبير عن صراعات الثقافة الوطنية من أجل أن تكون اللحظة الجديدة ذات وظائفيات تعيد الوصل بين الثقافة العراقية وعناصرها التحديثية في الأربعينيات فناً وسرداً وشعراً، وأنا أدرك بأن العودة للسياق التحديثي مرتهن بالتطور الشامل والتنمية البشرية التي هي مراكز للاحق في النمو الثقافي وتطوره، لأن الحداثة معطى للوعي بها وهذا أمر متحقق في الأوساط الثقافية العراقية ولكن ما يؤشر على الثقافة الآن هو الصوت الخافت أو الهادئ في نقد الأصول الثقافية/ سلفيات التراث العربي، لأننا من دون أن نحقق ذلك سنظل متأخرين في إنجاز نظامنا السياسي الدستوري ودولتنا المدنية ومؤسساتها الثقافية.
ولعل أهم ملمح في الثقافة الآن هو اتساع مساحة التداول الثقافي كما قلت، وإدراك سلطة الثقافة وطاقتها المغيرة بحيث يكون للمثقف دور بارز في أهمية فواعل الإنتاج الإبداعي والمعرفي وتطوير ودعم المؤسسات المجتمعية الأهلية، وتفعيلها ارتباطاً مع العناصر الموضوعية والخصائص الذاتية، لكل مجال ثقافي، وارتباطاً -أيضا- مع مستوى التنمية الكلية التي نأمل أن لا تكون نمطية/ تقليدية، بل يجب أن تكون خاضعة لآليات يستدعيها التحول. أما عن كيفية تعاملنا مع أطنان من المطبوعات الممجدة لعصر الدكتاتورية، أجد من الضروري التعامل معها باعتبارها نتاجاً لذلك العصر وهي ممثلة لمرحلة مظلمة ويجب إعادة القراءة لها أكاديمياً لنكتشف خطيئات المثقف العراقي وصياغة تصورات سوسيو-ثقافية/ وسياسية عن آليات السلطة في تسخير الثقافة لخطاب ساهم بإخضاع المواطن وتسخيره وممارسة أفعال إذعانية، بحيث وجد نفسه ضحية لذلك الخطاب.
لا أستطيع الادعاء بوجود ثقافة نقدية للذات وتشريح الماضي بالشكل الذي نطمح اليه ولكن هناك ظاهرة في هذا المجال، أنا اعتقد بضرورة قراءة الماضي ارتباطاً مع تكونات ثقافية قديمة/ التراث، علينا تحفيز الوسط من أجل ذلك، لأنه المعبر باتجاه ثقافة جديدة تضعنا على أعتاب متغيرات ثقافية/ وسياسية مهمة.
سأتحدث عن الثقافة الجديدة ليس بوصفي مثقفاً فقط وإنما باعتباري واحداً من أعضاء لجنة تحكيمية لمسابقة القصة والرواية التي أعلنت عنها فضائية البغدادية واكتشفت خلال أكثر من ثلاثين رواية بأن القاص العراقي حقق انجازاً مثيراً ومدهشاً عبر التنوعات السردية والتوظيفات وتباين الأشكال ووجود أطراس أسطورية/ تاريخية وكمون واع للتاريخ باعتباره نصاً أدبياً حسب رأي هايدن وايت، بالإضافة إلى وجود قراءات فكرية/ بنيوية لمرحلة الدكتاتورية وواجهنا - نحن أعضاء لجنة التحكيم - صعوبة بالغة في الاتفاق حول التراتبيات الفنية من أجل تحديد الجوائز الممنوحة لأننا وقفنا طويلاً أمام أكثر من نص مرشح للجائزة الأولى واستثمارات التاريخ فيه، بمعنى وجود نسق ملحمي في نقد الماضي/ الصدامي وأبعد من تلك المرحلة، حيث كانت رواية أسعد الهلالي- الميتة الثالثة الأخيرة-أكثر تغلغلاً في التاريخ السياسي الحديث منذ ١٩٥٨ وكانت نسبة ممتازة من الكم الروائي معنية بإعادة إنتاج الدكتاتورية بشكل مغاير تماماً كما في رواية د. حسين سرمك.
وكانت الروايات التالية:
١- أيام المستعصم/ عبد الجبار ناصر
٢- أقصى العالم/ ناظم العبيدي
٣- الميتة الثالثة/ أسعد الهلالي
٤- موصليا/ حسن رحيم
٥- جمهورية الفخر/ زهير كاظم
٦- ما بعد الجحيم/ د. حسين سرمك
وأؤكد بأن التباين في الروايات الثلاث رمزي ولم يكن جوهرياً والروايات الأخيرة تميزت بخصائص محلية وسرد فيه ابتكار في إيقاظ الروح الشعبية وتفجير طاقتها ابتداء من زمن الطاغية وحتى الآن. لذا أنا متفائل جداً بمستقبل الرواية العراقية وكان إغفال عديد من الروايات استجابة لآلية الفضائية البغدادية وليس لأسباب فنية. وتميزت القصص القليلة بفنيات استفادت من الأجناس وخصوصاً السينما والتشكيل وفازت سبع قصص وستظل الأولى والثانية في ذاكرتي وأنا أراهن على تحققات ليست قليلة في مجال السرد.

خط شروع لخطاب آخر

وكانت للناقد المسرحي د/محمد ابو خضير جولته في خضم هذا التغيير وهو يعده خط شروع لخطاب آخر اذ قال:
هنالك لحظات تأريخية في تاريخ البشرية، كما يسميه هيغل مكر التاريخ، فالخطاب القوماني الذي كان يعتقد انه موعود بفردوس، شانه شأن الكثير من الخطابات المثالية، ادخل نفسه في نفس شرنقة التمركز وبذلك كانت الحتمية هي هذا التهاوي، اعتقد بأن ٤/٩ خط شروع لخطاب آخر، نتمناه ان لا يكون محتشداً بوعود بوتوبية، وهذا الخطاب المستجد، لابد له من ان يدشن منظومة من المعرفيات لكي يكون جزءاً من اشغال البياضات التي شهدتها الدولة العراقية قبل ثمانية عقود، لذلك يجب ن يكون هنالك التريث ازاء ما تطرحه دولة المؤسسات التي بدت عبر هذا التاريخ ذات طبيعة ثأرية فالمؤسسة المستجدة الان لها فرصة للانفتاح على خطابات محدثة ما يمكن ان نسميه الما بعديات لكي تحضر خطابها في داخل الذات العراقية وعلى المؤسسة ايضاً بكل اجنحتها السياسية والمعرفية ان تثبت استشرافات لهذه الخطابات المحدثة اوان تبتعد عن خطاب التوثيق والتلفيق وان يكون للآخر الحضور من مبدأ التعادلية ويبقى ٤/٩ وشماً في ذاكرة التراث العراقية في كل الآليات التي خلفتها العقود الاربعةالماضية وعلينا كمثقفين وكثقافة ان يكون هنالك نوع من التجريد في الرؤية والمنهج بعيداً عن عيوب الايديولوجية والطائفية ومسميات التجييل والتحقيب، وفقاً لما يراه ادوارد سعيد تعقيباً على غرامشي في دفاتر السجن في فصله بين المثقف العضوي، الذي يتسم بالفعل الثقافي الادائي الفعلي والموقف الصريح في مواجهة كل السلطات والتمركزات وبين ادعياء الثقافة او مثقفي المؤسسات وعلى المثقف ان يتخطى ما اسماه ايضاً ادوارد سعيد بخطاب الملاءمة في تحميل الاخر وتبرئة الذات من كل النكوصات التي يتعرض لها المثقف والثقافة.

لا حياة لنا في غير وطننا

وتحدث الشاعر موفق محمد بلغته المغايرة التي عرف بها، عن هذا الحدث المهم، معتبراً الوطن هو الحاضنة التي تجمعنا وبدونه لا حياة لنا قائلاً:
في يوم ٢٠٠٣/٤/٩ لحظة سقوط الصنم قلتُ سأعتذرُ من الشعر لأني حمّلت وردته ما لا طاقة لها به فمن فوهة بركان إلى آخر يقذفها متناثرة في الأرض الحرام تتطاير أوراقها من جرح ينز دماً إلى جرح يلهث الصمت فيه (والراجمات كلمع البرق تشتجر) وبين الحلم واليقظة وقبل أن ننفض غبار الحروب و الجوع والدمار والمنافي عن وجوه أطفالنا وقصائدنا وإذا بجهنم تفتح أبوابها وتصب نيرانها فوق رؤوسنا صباً وكأن خزنتها يختصرون كل تاريخ العنف الدموي في العراق ويتصيدون آمالنا بعين صياد ماهر ليخرج المواطن من جلده ومن وطنه فاراً إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم وها نحن نكنس لحم أبنائنا في الطرقات وزفير جهنم يرن في أسماعنا وأبصارنا فما الذي يستطيعه المثقف ويده اليمنى تتلقى من يده اليسرى تعزية الموت ونصه الخارج من جب في جهنم يخضع وبحكم الخرافة التي تعصف بنا طولاً وعرضاً خاضع لقراءات وتأويلات الأساطين الذين يحاولون أن يقذفوا العراق خارج المجرة بعيداً عن كل ما هو أنساني وجميل بعيداً عن كل ما هو عراقي يمد جذوره في عراقنا الذي يخجل المواطن العادي من الانتساب أليه فهو يغير سحنته ولغته في المنافي.
المثقف هذا الذي لا حول له ولا قوة يحمل طين قصائده ويلوح للعراقيين بأرحامهم التي ثقبها الرصاص ويصرخ ولا أحد يسمع يصرخ ولا أحد يستدير فالكل يتجه صوب المغناطيس الذي يجذبه إلى ما وراء الحدود حيث الذل والفقر ويرى بأم عينيه أن لا حياة لأي إنسان خارج وطنه رغم اليأس الذي يلفنا وينقط قصائدنا بمخالبه التي تخرج من أجسادنا فأي قدر هذا الذي يعصف بالمثقف العراقي ويوزع رؤاه في دهاليز ما أنزل الله بها من سلطان ليخبز في تنانير مختلفة الوقود بانتظار الرصاصة التي تئز في أذنيه.

علينا بناء بلدنا وطرح مشروعنا الوطني

وكان للقاص والناقد جاسم عاصي رأيه هو الآخر بهذا التغيير فقال:
ليس غريباً أن يكون التغيير في حياتنا السياسية على يد الأجنبي أو الغازي، فقد شهدت كل الحقب تغييرات كهذه باستثناء التغيير الذي أحدثته ثورة الرابع عشر من تموز الوطنية. غير أن قبولنا بمثل هذا التغيير كان حاصل تحصيل ترتبت عليه متغيرات كثيرة. هنا لابد من القول أن ما أعقب ذلك من دمار في البنى جميعاً، كان خاضعاً للعفوية تارة، والتخطيط المسبق تارة أخرى. فمسألة تفكيك كل البنى التحتية، والفوقية هدفه جعل البلد يرزح تحت دوامة الفوضى، سيما وأن الأحزاب التي تبنت المسيرة لم تكن قد أعدت لها برنامجاً سياسياً، والبعض الآخر لم تكن لديه أدنى مستلزمات الفعل السياسي، كبرنامج للحزب، ونظام داخلي، أو رؤية مستقبلية لما سيحصل مستقبلاً، فقط جاؤا لأهداف عشوائية. لذا لم يكن بأمكاننا الحفاظ على هذا التغيير؛ بأن ننهض بإمكانياتنا الوطنية، فلم نلتفت إلى عملية الإلتفات الى المنجز، وقد غاب هذا على المحتل أيضاً بسبب عدم خبرته في ذلك، ونيته لتفكيك كل ما كان مبنياً وإعتباره خطأ عاماً. لقد سحبنا هذا إلى الإنجرار إلى مخطط الغازي، وإن لم يعلن مباشرة، ونسينا بنيتنا الوطنية، التي تستلزم التماسك، والتراجع سياسياً من لدنا، لوضع مشروع البلد موضع الصدارة، وإنهمكنا بتحقيق كل ما من شأنه دفع الجزية من الشعب، لتكون دخلاً لأولي الأمر، توفر لهم الرفاه وتعوضهم عن ما فاتهم في سني الغربة، متجاهلين كل حقوق البسطاء الذين سامهم الظلم السياسي والإجتماعي. إن الحديث عن هذا يطول، ويتطلب الصراحة وعدم المواربة. وأنا كمثقف عراقي أرى أن التغيير سحق الكثير من تصورات الناس، وأحبط مشروعنا الوطني، الذي ناضلت القوى الخيرة لسنين من أجل تحقيقه. لقد أدركنا للوهلة الأولى، ومنذ صعود العناصر التي لا تمتلك سوى أخذ الثأر من الآخر، دون الألتفات إلى ما ينتظرنا من توحد فقدنا تحقيقه في المهجر. وغدت المسألة متعلقة بإعادة الحقوق لهؤلاء، فعبثنا بكل شيء وتركنا الحبل على الغارب، بمبرر واه تماماً. كان يفترض بنا أن نعي كقوى - سياسية ومثقفين - مبدأ بناء الوطن، وطرح مشروعنا الوطني. ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب، والإبتعاد عن ضيق الأفق الحزبي والطائفي. أعتقد أن المرحلة القادمة تتطلب تغيير المنهج في كل شيء، وإلا حل الخراب الكامل بالبلد.

الفريد سمعان

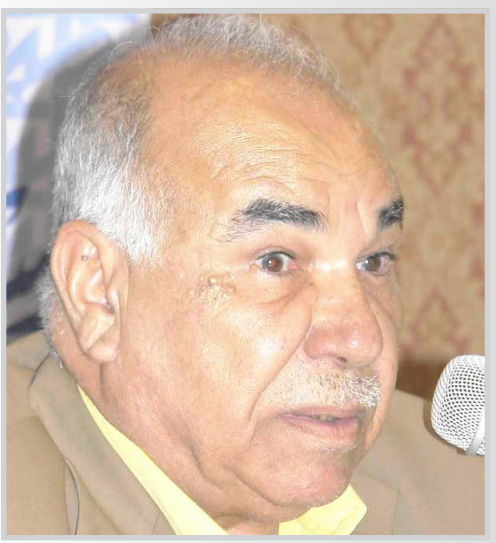
ناجح المعموري

موفق محمد